الثورة
الثلاثاء 24 ربيع الأول 1433هـ 5 فبراير 2013م العدد (17610)

بعد أن كانتْ أهم موانئ اليمن على الإطلاق..

مدينةُ المخا.. مِن قلبِ التاريخِ إلى خرابة في الحاضر

منذُ الصِغر وأنا أقرأ وأسمعُ عن مدينة وميناء المخا التاريخي والاقتصادي وما كان لهما مِن دورٍ حيوي في القرون السابقة حين كان ميناء المخا أهم وأشهر موانئ اليمن على الإطلاق,بدليل ما ذكرَهُ الرحّالة الأوروبيون عن هذا الميناء وما سطّرَهُ المؤرّخون ودوّنوهُ في كُتبِهم من شذرات تاريخية هامة توضح كم كان لهذا الميناء وهذه المدينة مِن أهمية وكم لَعِبَتْ مِن أدوارٍ في تاريخ واقتصاد اليمن القديم.

وهذا كان الدافع الأكبر الذي جعلني أيممُ وجهي شطر مدينة وميناء المخا,خاصة وأنّ شهرتها الاقتصادية كانت إلى وقتٍ قريب في ثمانينات القرن العشرين المنصرم تملأُ الآفاق ولا يكاد يوجد شخصٌ في اليمن لم يسمع بأهمية ميناء المخا الذي كان يتقاطر عليه التجار مِن كل حدبٍ وصوب.

استطلاع وتصوير/ فايز محيي الدين البخاري

حين عزمتُ على السفر باتجاه مدينة المخا مِن مدينة الحديدة عروس البحر الأحمر كانت الذكريات التاريخية تجسّدُ لي مدينةً وميناء ضخمين أرى فيهما حركة العمل وزحمة الاستيراد والتصدير على مدار الساعة..وفوق هذا وذاك كنتُ أتخيّل أنّي سأصل إلى مدينة وميناء لايقل جمالاً عن ميناءي ومدينتي عدن والحديدة،خاصةً وأنّ المخا بمينائها كانت من المُدن الموغلة في التاريخ ولها باعٌ طويلٌ في مجال التجارة العالمية،بدليل ما ذكرَهُ عنها الرحّالة الأوروبيون وما وردَ في كُتُبِهم مِن امتداحٍ لقهوة البن المخاوي أو بُن المخا الذي كَان أشهر بُنٍ في العالم،واشتهر في بلاد أوروبا بـ(بُن موكا) وكانَ مصدرُهُ ميناء المخا.. وهذا ما دفعَ العديد مِن البلدان الأوروبية في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين إلى غزو هذا الميناء ومحاولة السيطرة عليه،وعلى رأس أولئك البرتغاليون الذين أحكموا سيطرتهم في فترة من الفترات على ميناء المخا ومعظم السواحل الغربية لليمن.

قبل حوالي خمس عشرة سنة كنتُ قد قرأتُ عن تاريخ مدينة المخا وأهميتها في كتاب (مِن كوبنهاجن إلى صنعاء) الذي ترجمَه الأستاذ محمد أحمد الرعدي في طبعته الأولى الصادرة عن مركز الدراسات والبحوث اليمني قبل أنْ يتفضّل الأستاذ خالد الرويشان بإعادة طباعته حينما كان رئيساً للهيئة العامة للكتاب.. وهذا الكتاب يشرح قصة الرحّالة الدنماركيين الذين مثّلوا أوّل بعثة أوروبية إلى بلاد العربية السعيدة(اليمن) والتي عُرِفَتْ فيما بعد برحلة نيبور؛وكان هو الشخص الوحيد الذي نجا مِن الموت من أفراد تلك الرحلة وشاء له القدر ذلك ليعود ويسرد ما كان وما رآهُ في رحلته إلى بلاد العربية السعيدة ليكون ما دوّنَهُ شاهداً مهماً فيما بعد على حِقبة هامة مِن تاريخ اليمن السعيد.

وللتاريخ حكاية

لقد كان مِن حظ هذه المدينة أنْ وورِيَ فيها جثمان أحد أولئك الرحالة وهو البروفسور فون هافن المتخصص في اللغات وذلك في بعد ظهر يوم السادس والعشرين من مايو آيار عام١٧٦٣ م في المقبرة الأوروبية في المخا التي كانت تبعد قليلاً عن المدينة حسب ما ذكرَهُ نيبور في مذكّراته.

حين وصلتُ المخا لم أجد مما قرأتُهُ في كتب التاريخ وما سمعته منذ الصغر شيئاً ،لقد كان كل ما فيها يوحي بأنّ المدينة الحالية قد انسلخت عن القديمة تماماً،ولكن للأسف ليس نحو الأفضل؛فكل ما فيها يحن لماضٍ لم يعد منه سوى أطلالٍ تثير الشجن وتبعثُ في النفس ألف سؤالٍ وسؤال..لماذا لم تعد المخا كما كانت مهوى الأنفُس وملتقى التجارة العالمية وقبلة التجار من كل أقطار الأرض؟ وكيف تتطور المُدُن نحو الأفضل إلّا مدينة المخا؟؟

أسئلة وهواجس دارتْ في خَلَدي وأنا أُشاهدُ بقايا أطلالٍ لمدينة وميناءٍ كانا في يومٍ مِن الأيام ملء السمع والبصر،واليوم أضحيا يباباً وخرائبَ ينعق في جنباتها البوم والغربان،وبالذات الفنار الذي ظلّ لفترة طويلة يهدي السفن ويهتدي به الكثير مِن البحّارة.

والأمر كذلك هو بالنسبة لمعظم العمارات القديمة التي كانت مِن الأهمية بمكان في عهودٍ سابقة،وبالذات جامع الشاذلي.أمّا ما أعجبني فقد كان رصّ بعض الشوارع في المدينة القديمة بالأحجار التي تسمى ((صلل)) الأمر الذي عكس صورة جميلة عن هذه البنايات والحارات التاريخية؛فضلاً عن الإيحاء باهتمام الدولة بالمخا ولكنّهُ اهتمامٌ لايزال دون المستوى المطلوب بكثير.

الحاجة للتشجير

في الساحل وعند الميناء كان أوّل ما لفتَ انتباهي هو كثرة الرمال التي تحملها الرياح نحو المدينة وتكاد تعمي الأنظار ولا يستطيع المرء أنْ يتملّى بحُسن شواطئ المخا بسبب تلك الرياح المحمّلة بحبيبات الرمال.

وهو مالم يعرف السكان مثلها في أي موسم سابق، مما أثر في حياة الناس وأدى بهم إلى ملازمة بيوتهم لتفادي كثير من الأضرار التي تسببها قوة هذه الرياح المحملة بالكثبان الرملية التي لا ترحم في طريقها أي شيء والناجي منها عليه وهو عائد إلى منزله أن يفرغ عند قعر داره حمولة زائدة من الرمال والأتربة وما ألقت عليه هذه الرياح من حمولات أخرى..

كما أن هناك تحذيراً من خروج الأطفال والعجزة إلى الشوارع خوفاً من هذه الرياح والزوابع الترابية الشديدة والقاسية التي جعلت مدينة المخا وأهلها تحت رحمة الوضع المناخي المتقلب على موسمه الذي اعتاد عليه الناس والمدينة في كل موسم من مواسم الرياح السنوية.ما يجعلها اليوم أحوج لحزام التشجير وإلى كثير من المبادرات الشعبية لإعادة الاهتمام بزراعة النخيل في المنطقة لما لها من فائدة كبيرة في إيقاف الزحف الرملي على المدينة وكذا مقاومة مثل هذه الزوابع الترابية، إلا أن تلك المبادرات يبدو أنّها غائبة في مدينة المخا،حيثُ أهملها سكانُها دون مبالاة بمواسم الرياح مع معرفتهم بهذه المواسم من جيل إلى آخر.

وهذا ما أكّدَهُ لنا بعض مَن قابلناهم مِن كبار السن في المخا،الذين قالوا إنّ الرياح هذا الموسم غير المعتاد والمناطق الساحلية من المخا إلى ميدي تتعرض لمثل هذه الرياح الموسمية وتسمى عند سكان المخا بـ»الحسوم« وفي الآية القرآنية قال الله تعالى »سخرها عليهم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيّام حُسُوْمًا« وتستمر سبعة أيام أو سبع ليال ثم تأتي بعدها رياح عاتية تستمر أربعين يوماً وتشتد في الساعة الأخيرة من وقت العصر حيث تكون مصاحبة لهذه الرياح غوبة تغطي المخا وتستمر لنصف ساعة أو أقل وحينها يحتمي الناسُ في بيوتهم خشيةً من الخروج إلى الشارع وتتوقف الحركة تماماً حتى تخرج الغوبة من المخا ومن المنطقة.ويقال بأنّ الشيخ المناضل محمد علي عثمان كان أوّل مَن أدخل نظام التشجير إلى مدينة المخا في ستينيات القرن العشرين عقب قيام ثورة السادس والعشرين من سبتمبر عام١٩٦٢ م حين كان عضواً في المجلس الجمهوري الذي هو بمثابة مجلس الرئاسة.

موقع فريد

في الكتب التي تؤرّخ لمدينة المخا وفي قواميس ومعاجم البلدان وعند الذين كتبوا عنها يُذكر أنّ المخا مدينة وميناء تقع غرب مدينة تعز بحوالي٤٩ كيلو متراً على ساحل البحر الأحمر، تتبع محافظة تعز وتتكون مديرية المخا من ٤ عزل ويصل عدد سكانها ما يقارب ٢٦ ألف نسمة. يمتد تاريخ هذه المدينة إلى ما قبل الإسلام، حيث ذكرتها النقوش الحميرية باسم (مخن)، كما ذُكِرَ اسمُها في نقوش يمنية قديمة بخط المسند مثل نقش الملك(ذو نواس) يَذكرُ هذا النقشُ أنّ الملك (ذو نواس) قاد جيشه إلى (مخن) واستولى عليها بعد قتاله الأحباش، ويعود هذا النقش إلى عام ٥٢٥م أي قبل الغزو الحبشي لليمن.

تعرضت المدينة لعدة حملات عسكرية أهمها حملات البرتغاليين في أوائل القرن العاشر الهجري على سواحل اليمن ومن ثم سارع احتدم التنافس بين الدولة العثمانية والحكومة البريطانية على المنطقة وكانت نتيجته طرد البرتغاليين من السواحل اليمنية، وقد دخلت الدولة العثمانية مدينة المخا عام٩٥٤ هجرية،إبان الغزو العثماني الأوّل كما يقول الأستاذ أحمد حسين شرف الدين في كتابه »اليمن عبر التاريخ«،وذكر أن مدينة المخا كانت تشكل موقعاً عسكرياً ينطلق منه العثمانيون لشن غاراتهم على البرتغاليين.

ميناء هام

ورغم ما مرّتْ به مدينة المخا وما نالها من تقلّبات الزمن وصروف الأيّام إلّا أنّها لاتزال تحافظ على بعض رونقها من خلال الشارع العام الذي تمّ تشجيره كما أسلفنا في الستينيات،ومن خلال الساحل الجميل الذي يعكس بروعته على مدينة المخا جمالاً نادراً وبريقاً يجعلها تزري بأجمل مدن العالم،فقط لو تمّ الاهتمام بها كما يجب ،وتوفّرتْ لها إرادة قوية ونية صادقة،فهي إلى الآن مازالتْ تعيش على أمجادها السابقة حين كانت أهم ميناء في الجزيرة العربية في القرن السابع عشر الميلادي، حين عرفها العالم من خلال تصديرها لأجود أنواع البن اليمني. وفي هذا الصدد يقول المؤرخ عبدالواسع الواسعي الذي عاش زمن الإمام يحيى حميدالدين وعاصرَهُ وأرّخ لفترته وزمنه: باسم المخا سمّى الإفرنجُ أفخرَ البُنّ عندهم الذي عرف باسم »موكا كوفي« التي تعني بن المخا، إضافة إلى تصدير عدد من السلع اليمنية إلى الخارج كالصبر والبخور وأعواد الأراك.

ولكن للأسف –وكما يقول أحد الكتاب– لم يتوقف تعذيب جسد هذه المدينة بتدمير قلاعها وهدم منازلها وقصورها ومتاجرها، فكان أكثرها وحشية الحرب العثمانية الايطالية في بداية القرن العشرين، وكذا أثناء الحرب العالمية الأولى حين دمرها البريطانيون في قتالهم للعثمانيين.ها نحن بعد مئات السنين نترك تاريخ الحرب إلى حاضر يحمل صور السلام الذي تعيشه هذه المدينة التي ما زال التاريخُ يفوحُ مِن كل أرجائها رغم الإهمال الواضح للعيان.

كنوز طبيعية

ورغم جمال الشارع العام الذي يتوسط المدينة ويقع إلى الجنوب من السوق والحي القديم وفيه توجد الأشجار البواسق إلّا أنّ بقية الشوارع عارية من الإسفلت كغيرها من أزقة وشوارع المدينة التي تركت لتحتضن الأتربة فتمنحها للرياح لتكتم الأنفاس وتغبر الوجوه ناهيك عن ذلك غياب الإنارة إلّا من هذا الشارع الوحيد والرئيسي..

سواحل المخا لا تزال جميلةً رغم الإهمال الذي تعاني منه،وذلك بسبب موقعها وجغرافيتها النادرة التي حباها الله بها،فضلاً عن أنّها جميلةٌ أيضاً بطيب أهلها ووداعتهم وميْلهم للسلم والبساطة التي قَلّ أنْ تجدها في موطنٍ آخر على امتداد الخارطة اليمنية إلّا في بقية المناطق التهامية التي لا تزال ترزح في غياهب النسيان رغم ما تحويه من كنوز طبيعية وأرض خصبة بإمكانها أنْ تغطي احتياجاتِ اليمن مِن الحبوب لعقود مِن الزمن خلال موسمين أو ثلاثة لو تمّ استزراعها بشكلٍ سليم.

بعد تجوالٍ طويلٍ في سوق المخا والحي القديم وجامع الشاذلي والفنار الذي سنتطرق لها في استطلاع آخر إن شاء الله ودّعنا مدينة المخا باتجاه باب المندب بعد أنْ تركت فينا انطباعاً لا يُنسى وذكريات ستظل حيّةً على مدار السنين،فقط لأنّها المخا التي تودّع زائريها بمحبةٍ مفعمة كما تستقبلهم بكل ترحاب!